الفصل الثانى

علم الكلام الراهن

١

تمهيد(*)

كانت الدعوة الإسلامية - منذ نشأتها - دعوة إلى التوحيد ، وقد عمل الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - جاهداً فى أن يوطِّد أركان هذه العقيدة فى نفوس الذين اتَّبعوه ، ولم يفعل ذلك عن أمره ، وإنما فعله مُنفِّذاً للوحى المعصوم ، وللآيات القرآنية الكريمة ؛ ذلك أن القرآن فى جميع أجزائه قد جعل هذه العقيدة أُولى العقائد الجوهرية : « لا إله إلا الله » : إنها كلمة التوحيد ، وهى كلمة الإخلاص ، وهى أول ما ينطق به الشخص حينما يعتنق الإسلام . وتوحيد الله هو جوهر وحدة الدين :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(١).

ولقد كان الهدف الأول لجميع الرسل السابقين هو : التوحيد .

والقرآن صريح فى هذا المعنى وفى تأكيده ، وفى إظهاره :

(*) لقد ابتعد علم الكلام - على مر الزمن - عن القرآن ، مقترباً من الفلسفة ، حتى إنه ليوشك أن يصير فلسفة عقلية بحتة ، ونريد أن نرسم صورة موجزة كل الإيجاز ، صورة هيكلية بالغة الاختصار ، لما ينبغى أن يكون عليه علم التوحيد ، وذلك يقتضى أمرين : الهدم والبناء . لذلك سنتحدث أولاً عما يجب أن يزول من مباحث علم الكلام ، ثم نتحدث عما يجب أن ينجه إليه .

(١) سورة الشورى : ١٣ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾[1] .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[2].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[3].

ويبيِّن القرآن أن هذه العقيدة عامة مطلقة ، إنها العقيدة الأولى التى أكَّدها جميع الرسل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[4] .

وحينما يقول الله - سبحانه وتعالى - :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[5].

فإنه آثر أن يقول « أمة » بالإفراد لا «أُمماً » ، ولا يعنى شيئاً آخر غير الأمة الإسلامية الواحدة الموحَّدة .

التوحيد - إذن - سارٍ فى جميع أجزاء الرسالة الإسلامية ، ولا شك أن وحدة العقيدة ووحدة الأخلاق : من أهم العوامل التى تتجه بالمؤمنين إلى الوحدة الشاملة:

- « **المؤمن أخو المؤمن** » .
- « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً** » .
- « **مَثَلُ المؤمنين فى تَوادِّهم وتَراحمهم كمثل الجسد** » .
- « **أَحِبُّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك ...** ».

والإنسان لا يحتاج إلى تعمق كبير ، ليرى أن الدين الإسلامى إنما هو دين

(١) سورة هود : ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) سورة هود : ٥٠ .
(٣) سورة هود : ٨٤ .
(٤) سورة الأنبياء : ٢٥ .
(٥) سورة البقرة : ١٤٣ .

التوحيد ودين الوحدة ، وأن النزاع والاختلاف والتفرُّق والشذوذ : ليس لها فى دين الله من مكان .

ومع ذلك فقد تفرَّق المسلمون ..

ولسنا الآن بصدد البحث عن أسباب تفرُّق المسلمين واختلافهم - فى شىء من التفصيل - ولكننا بصدد البحث عن وحدة العقيدة وعن الأسباب التاريخية القديمة التى أخذت - ولا تزال - تهدم فى الأساس المتين الذى أقامه وعمل على تمكينه رسول الله ﷺ .

وإذا تبيَّـنَّا هذه الأسباب ؛ تبيَّـنَّا فى الوقت نفسه طريقة تلافى الاختلاف فى العقيدة ، وربما تبيَّـنَّا من ذلك بعض أسباب تفرُّق المسلمين ، وبعض العلاج لإزالة هذا التفرُّق ، فمما لا شك فيه أن الاختلاف فى العقيدة من دواعى التفرُّق فى الأمم ، بل فى الأمة الواحدة ، وأن الاتفاق فى العقيدة من دواعى الوحدة .

وقد أتى على هذا الاختلاف فى العقيدة أَمَدٌ من الدهر طويل ؛ فتمكَّن من النفوس ، ولا مناص - إذن - من أن نستفيض فى شرح الداء حتى يمكن العلاج فى شىء من التوفيق إن شاء الله تعالى .

بيد أننا سوف لا نقتصر على ذلك ، فإن الاقتصار على ذلك نصف المرحلة ، ولو اقتصرنا عليه لكنَّا مقصِّرين ، ونريد إذن - والله المستعان - أن نحاول فى المرحلة الثانية بيان طريقة السَّلَف الصالح فى الاعتقاد وفى الاستدلال عليه ، وأن نضرب أمثلة لبعض مظاهر إيمانهم القوى الذى غيَّر وجه العالم ونشر كلمة الله .

ومما لا شك فيه : أن الاختلاف فى العقائد وتفرُّق الأمة الواحدة إلى فِرَق متعددة : له آثار سيئة ونتائج وخيمة .

ولا ريب أن المسلمين - على بكرة أبيهم - يودُّون أن تعود الوحدة فى العقيدة إلى ما كانت عليه فى الصدر الأول ؛ وإنهم ليتلمَّسون الوسائل لإحياء الشعور الدينى الذى يأبى التفرُّق والتنازع فى مجالات الإيمان .

وقد ترك الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وصاحباه : أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - الأمة الإسلامية ، وكان يتمثل فيها خير تمثيل : الآية القرآنية الكريمة :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[1] .

والآية الكريمة :

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[2].

بيد أن الأمة الإسلامية تفرَّقت بعد وحدة ، وتنازعت بعد اتفاق..

نعود فنتساءل: ما العوامل التى أدت إلى الاختلاف فى العقيدة ؟

وليس بعسير تبيين هذه العوامل وتوضيحها ، فإن القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة قد بيَّنا ذلك فى وضوح ، وفى أسلوب لا لبس فيه ، وبيَّنا أيضاً العلاج الذى ينجع ، وقد وضَّح سلفنا الصالح نهج الكتاب والسُّنَّة فى أمر العقائد .

والأساس الأول فى القرآن هو التمييز الحاسم الذى ميَّز به القرآن بين ميدانين أطلق لنا الحرية فى أن نبحث فى أحدهما ما شاء الله لنا أن نبحث ، مؤيدين أو شارحين أو متفهمين : وذلك هو ميدان الآيات المحكمات . أما الآخر الذى ليس لنا أن نبحث فيه فإنه المتشابه ، يقول الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[3] .

أما الأحاديث الشريفة التى ترسم للمؤمنين الطريق الذى يجب أن يتَّبعوه احتفاظاً بالوحدة ، واتباعاً للنهج الصحيح ، وابتغاء للطمأنينة القلبية : فإنها

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٢.

(٢) سورة المؤمنون : ٥٢.

(٣) سورة آل عمران : ٧ .

كثيرة ، وسنذكر منها الكثير فى أثناء هذا البحث إن شاء الله تعالى .. أما الآن فسنكتفى بثلاثة :

قال - صلوات الله وسلامه عليه - :

« **اتَّبِعوا ولا تَبتدِعوا ؛ فإنما هلكَ مَنْ قبلكم بما ابتدعوا فى دينهم، وقالوا بآرائهم ، وخالفوا سُننَ أنبيائهم ؛ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا** » .

وقال - صلوات الله وسلامه عليه - فى إحكام دقيق ، وفى إيجاز محكم :

« **اتَّبِعوا ، ولا تَبتدِعوا ؛ فقد كُفِيتم** » .

وعن على - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« **أتانى جبريل ، عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إنَّ أُمَّتَكَ مختلفةٌ بَعْدَكَ ، قال : فقلت : فأين المَخْرَجُ ؟ فقال : كتاب الله** ».

رسمت الآية القرآنية الكريمة ، ورسمت الأحاديث النبوية الشريفة طريق الوحدة فى العقيدة والاطمئنان إجمالاً وعموماً ، وسبيلنا الآن أن نبيِّن المراد بالمحكم والمتشابه ، ونبيِّن طريق الاتِّباع وطريق الابتداع ، ونشرح كيفية التزام كتاب الله حتى نخرج من الاختلاف لننضوى تحت راية الاعتصام بكتاب الله ، فى وحدة متناسقة ، وبالله التوفيق .

٣

مشكلة القدر

« **اتَّبِعوا ولا تَبتدِعوا ؛ فقد كُفِيتم** » ..

هذا الحديث الشريف يلخص « المنهج » الذى نحب أن يسير عليه العالم الإسلامى فى أمر العقيدة ..

نحب أن يسير عليه رأياً وفكرة ، ونحب أن يسير عليه - من قبل ذلك - استعداداً وتأهُّلاً ..

وهذا الاستعداد والتأهُّل يتأتى على الخصوص بوساطة دور التعليم فى جميع مراحله، وبوساطة الصحافة والكتب التى تُنشر .

وهذا الحديث الشريف يسانده فى معناه ما لا يكاد يُحصَى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والآثار التى وردت عن كبار الصحابة وكبار التابعين ، يقول الله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١).

لقد كمل الدين ، فكفانا الله كل ابتداع ، وإذا كان الدين كاملاً فما علينا إلا الاتِّباع ، أما طريقة الاتِّباع فقد حدَّدها الله فى الآية الكريمة التى سبق أن ذكرناها(٢) . والطريقة - إذن - أن نتَّبع الآيات المحكمات فى فهم ووعى وتأييد ، وهى ليست مثار جدل ولا خصومة ، وليست مجال نزاع يحتدم ، أو أهواء تثور ، وأن نؤمن بالمتشابه كما ورد ، وألاَّ نتَّبعه متأوِّلين .

فإن تتبُّع المتشابه : إنما ينشأ عن القلوب التى تلوَّنت بالزيغ والانحراف ، وهى التى تتبعه ابتغاء الفتنة ، وتتبعه لتأويله ، وتأويله إنما يعلمه الله .

- ولكن ما هو هذا المتشابه ؟

لقد اختلف فيه أئمتنا ، ولا نريد أن نتعرض لهذا الاختلاف ، وإنما نريد أن نقول - فى اطمئنان وثقة - :

إن المسائل التى نَهى الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن الخوض فيها ، والمسائل التى كان الاتجاه العام فى عهد الخلفاء الراشدين ينفر من الخوض فيها هى من المتشابه . فالمتشابه - إذن - : هو ما تنفر منه الروح العامة للدين الإسلامى فى عهده الأول (عهد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وخلفائه الراشدين) وتتحرَّج من الخوض فيه .

- مثل ماذا ؟

أما أولى مسائل المتشابه التى نريد أن نتحدث - بتوفيق الله - عن شىء من تاريخها ، فهى : مسألة القدر .

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

(٢) وهى قوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) [سورة آل عمران : ٧] .

لقد شغلت مسألة القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد ، عقول الإنسانية - منذ أن كان الدين - أى : منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية .

وإذا أُثيرت مسألة القدر فى أىِّ وسطٍ كان ، مهما كان قليل العدد، فإنها تقسمه إلى قسمين : يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار .

لقد أثارها اليهود فى دينهم ففرَّقت بينهم: وقال بعضهم بالجبر، وقال الآخرون بالاختيار .

وأُثيرت فى الديانة النصرانية على مجرى التاريخ فكان النزاع والجدل وكان التحيُّز لرأى والتعصُّب له . وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين يختصمان .

وأراد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة ؛ فكان ينهى دائماً عن إثارتها وعن الجدال فيها .

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « **خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مُغْضَباً حتى وقف عليهم، فقال : يا قوم ، بهذا ضَلَّتِ الأمم قبلكم ؛ باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فَصَدَّقَ بعضُه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به** » .

وعن أبى هريرة ، قال : « **خرج رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمرَّ وجهه ؛ ثم قال :**

أبهذا أُمرتم ؟ أم بهذا أُرسلتُ إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر .عزمتُ عليكم ألاَّ تتنازعوا » .

واتخذ رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - موقفاً حاسماً جازماً بالنسبة لمنع الخلاف فى هذه المسألة ، أو حتى مجرد إثارتها .

ومضى رسول الله ﷺ راضيًا مرضيًّا ، وهو لا يسمح - حتى النفس الأخير من حياته الشريفة - بأن تثار هذه المسألة .

ولم تُثر هذه المسألة فى عهد سيدنا أبى بكر لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية ، منصرفين بذلك عن العبث فى دين الله .

وكانت دِرَّة سيدنا عمر كفيلة بردِّ كل من تحدِّثه نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادَّة الصواب .

مسألة القدر - إذن - من المتشابه ، إنها من أهم مسائل المتشابه..

وهى فضلاً عن ذلك عصيَّة على الحل ، إنها ليست قابلة للحل ، وهى ليست قابلة للحل سواء أُثيرت فى الشرق أو فى الغرب ، وسواء أُثيرت فى القديم أو فى الحديث ، أو أُثيرت فى البادية أو فى الحضر ، إنها مفرِّقة بين الباحثين فيها ، ومهما طال الجدل بينهم فسوف لا ينتهون إلى نتيجة : ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرِّم الخوض فيها .

ومع ذلك فقد بدأت هذه المشكلة تتسلل - شيئاً فشيئاً - إلى المجتمع الإسلامى حتى لقد احتلت يوماً ما مركز الصدارة فى الفكر الإسلامى النظرى .

ولقد مهَّدت السياسة - أولاً - لهذا التسلل ، وكانت السياسة أول عامل من عوامل إفساد التفكير النظرى الدينى فى المجتمع الإسلامى السليم !

كتب معاوية بن أبى سفيان - بعد أن تولَّى المُلك - إلى المغيرة بن شعبة يطلب منه أن يكتب إليه بالحديث الذى كان يقوله الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أحياناً ، وهو على المنبر. فكتب إليه المغيرة أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دُبُرِ كلِّ صلاةٍ إذا سَلَّمَ :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا مُعْطِيَ لما منعتَ ، ولا رَادَّ لما قضيتَ ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ » .

وأخذ معاوية يذيع هذا الحديث الشريف من فوق المنابر مؤمناً بأنه من عوامل توطيد مركزه فى الأمة .

هذا الاستعمال السياسى للأقوال الشريفة ، أثار بعض الضمائر التى لم تطمئن إلى هذه الصورة التى اعتبروها استخداماً للدين والتى لم يروا فيها مظهراً للخضوع والانقياد للدين ، فهبُّوا يعارضون فكرة « الجبر » التى أخذ معاوية يبشِّر بها مستنداً إلى هذا الحديث الشريف .

ولسنا الآن بصدد التأريخ الكامل لهذه المشكلة ، ولقد بيَّنَّا على الأقل أمرين :

أحدهما : هو أن هذه المشكلة من المتشابه ، لأن الرسول ﷺ نَهى عن الخوض فيها .

ثانيهما: أن السياسة هى التى بدأت بإدخال هذه المشكلة فى البيئة الإسلامية.

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من وراء كل ذلك ، فهى : أن البحث فى هذه المسألة يجب أن يُنتزع كليةً من محيط الفكر الإسلامى ، وأن تُنتزع المسألة مما يسمونه « علم الكلام » ، فإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً مهماً من الأسباب التى تفرِّق المسلمين بسبب الاختلاف فى العقيدة ، ونكون بذلك قد ساهمنا بقسط وافر فى سبيل « التوحيد ».. وبالله التوفيق .

* * *

٣

مشكلة الصفات

(أ) يقول الله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[١] .

ويقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[٢].

ويقول ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣هـ - مستنتجاً ومرشداً -:

« إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يُدْرَكُ بقياسٍ أو بإنعامِ نظرٍ؟!».

---

(١) سورة الصافات : ١٨٠ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

أما حكماء المصريين القدماء ، فإنهم يقولون - فى حكمة حكيمة- :

« **مُحالٌ على مَنْ يَفْنَى : أن يكشف النقاب الذى تَنقَّبَ به مَنْ لا يَفْنَى** » .

ومَنْ يَفْنَى : هو الإنسان .

ومَنْ لا يَفْنَى : هو الله الباقى .

وسواء نظرنا إلى التراث الدينى الصحيح من قرآن أو سُنَّة ، أو نظرنا إلى أصحاب الآراء السليمة التى فهمت الأوضاع الدينية فهماً يتلاءم مع الروح الصحيح للتدين : فإننا نجد أن الاتجاه العام فى ذلك كله يبتعد بالإنسان ابتعاداً تامًّا عن أن يقول فى الله سبحانه - ذاتاً وصفات - برأيه :

« **تَفَكَّرُوا فى آلاءِ الله ، ولا تُفَكِّرُوا فى ذاتهِ ؛ فَتَهْلِكوا** » .

إن هذا الأثر يرسم النهج السليم ويعبر عما يجب أن يكون عليه الإنسان إذا أراد النجاة وابتغى السلامة .

وما من شك فى أن البحث فى الذات والصفات الإلهية : من ناحية الصلة بينهما توحيداً أو تغايراً ، والبحث فى الصفات الموهمة للتشبيه نفياً أو تأويلاً : إنما هو تهجُّم من الإنسان على مقام لا يَرْقَى إليه وَهْمُ مُتوهِّمٍ ولاخيالُ مُتخيِّلٍ ، وإنه لَحَقٌّ : أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

وقد كان من الطبيعى : أن يقدِّر الباحثون أنفسهم باعتبارهم من البشر حقَّ قدرها ، وأن يقدِّروا الله حقَّ قدره .

ولو سار الأمر على هذا النسق لما تطاول البشر إلى مقام الله ، ولما تجاوزوا حدودهم ؛ وبالتالى لما كان هناك اختلاف وتنازع وافتراق فى موضوع الصفات الإلهية .

ولكن بعض الباحثين لم يلتزموا حدودهم كأفراد من البشر، وغَرَّهم عقلهم ، وخدعهم شيطانهم: فحاولوا بعقولهم أن يفتروا على الله ما لم يُنزل به سلطاناً ؛

فكانت المشكلة الثانية فى علم الكلام - مشكلة الصفات - التى أثارت الجدل والخصومة والتفرقة بين المسلمين ، وجعلتهم فِرَقاً تتنابز وتتخاصم ، ويرمى بعضها بعضاً بالانحراف والضلال .

(ب) ونشأت المشكلة : حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم ، والتى تُوهِمُ التشبيه : كاليد والوجه، والاستواء ، أو التى وردت فى الأحاديث : كالنزول ، والصورة ، والأصابع .

بدأت المشكلة : حينما تعرَّض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها : تأويلاً لها أو نفياً لمعناها ، أو تفسيراً وشرحاً .

ومنذ أن بدأ الحديث فيها بدأ الجدل حولها والنزاع ، واستمر خلال العصور عصراً تِلْوَ عصر ، ولا يزال حتى الآن يثار الجدل بين أنصار الإمام الأشعرى ، وأنصار الإمام ابن تيمية .

وكان النزاع حول موضوع الصفات الإلهية وصلتها بالذات الإلهية - على وجه العموم - يسير فى هدوء أحياناً ، وفى عنف أحياناً أخرى .

وقد تولَّد عنه كثير من المشاكل الدامية ، كمشكلة «خَلْق القرآن» ، والمشاكل المبلبلة للأفكار والخواطر ، كمشكلة : « الصلاح والأصلح » .

وجدت هذه المشاكل وكثرت وتعدَّدت ، كدليل واضح على عجز « العقل البشرى » تجاه العظمة اللانهائية الإلهية .

ومع الإخفاق المتتابع فى البحث فى هذا الموضوع ، منذ الآماد المتطاولة ؛ فإن البشرية لم تَرْعَوِ ولم تتَّعظ ، ولا تزال مستمرة فى البحث ، تتخبط فيه وتتنازع وتتجادل وتختصم ؟

(جـ) والحكمة كل الحكمة - إذن - إنما هى موقف سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - فقد هَدَتْهُمْ نزعتهم الدينية السليمة إلى الموقف السليم ، فـ « قدروا الله حقَّ قدره » وقدَّروا أنفسهم حقَّ قدرها ؛ فَسَلِمُوا من البلبلة والاضطراب ، وسَلِمُوا من التنازع والاختلاف ، وكانوا فرقة واحدة ..

لقد اتخذوا مبدأ أساسيًّا ، وقاعدةً لا مراء فيها ولا شك ، هى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١).

وهذه الآية تنسف كل تشبيه نسفاً مطلقاً، فاحترز سلفنا الصالح عن التشبيه، حتى لقد قالوا : مَنْ حرَّك يده عند قراءة قوله تعالى : « خَلَقْتُ بيديَّ » أو أشار بإصبعه عند رواية الحديث الشريف: « **قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ من أصابع الرحمن** » : وَجَبَ قطعُ يَدِهِ ، وقطعُ إصبعِهِ .

احترز السلف عن التشبيه ، ولكنهم احترزوا عن التعطيل أيضاً :

فهم يُثبتون لله ـ اتِّباعاً للقرآن ـ الإرادة ، والعلم ، والصفات الكريمة التى ورد بها القرآن الكريم .

والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح ـ إذن ـ تجاه كلمات : الصورة ، واليد ، والنزول ، إنما هو : الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى ، عن الجسمية وتوابعها ، وليس معنى ذلك أن هذه الألفاظ مُعطَّلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته: مما ليس بجسم ، ولا عَرَض فى جسم .

وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ : فهو كما وصفه ، وهو حق بالمعنى الذى أراده ، وعلى الوجه الذى قاله .

وألاَّ يحاول لها تفسيراً ولا تأويلاً ..

وشعار السَّلَف معروف فى أمثال هذه الكلمات :إنه « أَمِرُّوها كما جاءت ».

وكانوا يذكرون فى هذه الظروف الآية القرآنية الكريمة :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾(٢) .

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾[1]..

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[2]..

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾[3].

ولا مناص ـ لمن يريد أن يحترز عن الزيغ ـ من أن يمتنع عن التأويل والتفسير، وأن يُمِرَّ هذه الكلمات كما جاءت .

ويلخص الإمام الرازى - فى كتابه « أساس التقديس» - المذهب السلفى فى كلمات موجزة دقيقة كل الدقة ، فيقول :

« إن هذه المتشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها شىء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها».

هذا هو مذهب السلف فى الصفات ، وهو مذهب لا يثير جدلاً ولا خصومة وليس من طبيعته ذلك .. إنه مذهب العبودية الصحيحة .

وهو المذهب الذى يتمذهب به كل من عنده نزعة التديُّن السليمة ..

وهو مذهب الإمام مالك ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل ، والسلف الصالح ، رضى الله عنهم ..

ومن الطبيعى أن يكون مذهب الفرقة الناجية ..

ويجب على كل المسلمين الفاقهين لدينهم أن ينشروه فى جميع أنحاء الأمة الإسلامية ، فهو أمانة فى عنقهم ، وهو رسالة يجب عليهم نشرها منعاً للحيرة والاضطراب عند الأفراد ، ومنعاً للاختلاف والتنازع بين الجماعات ، ونشراً للإسلام ، وتوحيداً للكلمة بين الأفراد والجماعات الإسلامية. ويجب أن يُنتزع بحث الصفات كليةً من محيط الفكر الإسلامى ، وأن تُنتزع المسألة مما يسمُّونه «علم الكلام» ، فإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً آخر مهمًّا من الأسباب التى تفرِّق المسلمين بسبب الاختلاف فى العقيدة ، ونكون بذلك قد ساهمنا بقسط وافر فى سبيل « التوحيد » .

(١ ، ٢ ، ٣) تابع سورة آل عمران : ٧ .

٤

وجود الله

مشكلة «القدر» من المباحث التى يجب ألاَّ يبحث فيها المسلمون.

ومشكلة «الصفات» من المباحث التى يجب ألاَّ يبحث فيها المسلمون .

ويجب أن تُنتزع هاتان المشكلتان من مباحث « علم الكلام » ، يجب أن تُنتزعا بكل ما لهما من فروع ومن شُعَب.

أما المسألة الثالثة التى يجب أن تُنتزع أيضاً : فهى البحث فى وجود الله سبحانه وتعالى .

والواقع أنه حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته ، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها ، فإنه - صلوات الله وسلامه عليه - لم يبدأ بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو ، وتحدَّى العرب بصدقه. ومن قبل ذلك : حين فاجأه المَلَكُ فى الغار ونزل الوحى لم يبدأ المَلَكُ أو لم يبدأ الوحى بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ الأمر بأن يقرأ الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - باسم ربه:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (١) .

ومضى القرن الأول كله ولم يحاول إنسانٌ - قَطُّ - أن يتحدث حديثاً عابراً أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله تعالى ، ومضى أكثر القرن الثانى والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث.

ذلك أن وجود الله : إنما هو أمر بديهى لا ينبغى أن يتحدث فيه المؤمنون نفياً أو إثباتاً ، ولا سلباً أو إيجاباً .. إن وجود الله : من القضايا المسلَّمة التى لا توضع فى الأوساط الدينية موضع البحث ؛ لأنها فطرية ..

وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص فى إيمانه دَخَلٌ

---

(١) سورة العلق : ١ .

وفى دينه انحرافٌ فما خَفِيَ الله - قَطُّ - حتى يحتاج إلى أن يُثبته البشر ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً . ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجئ لإثبات وجود الله وإنما جاء لتوحيد الله. وإذا تصفَّحت القرآن ، أو التوراة حتى على وضعها الحالى ، أو الإنجيل حتى فى وضعه الراهن : فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى أىِّ سِفْرٍ منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية، أو احتلت مكاناً يُشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم : يتحدث عن بداهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة .. يقول سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] .

إنهم يقولون : إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه ، فى إيمانهم بالله تعالى . وما نزلت الأديان - قَطُّ - لإثبات وجود الله ، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد فى الله أو لتصحيح طريق التوحيد.

أما الآيات الكثيرة ، التى يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود : فليست من ذلك فى قليل ولا فى كثير ، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم ، ما عَظُمَ من أمره وما دَقَّ منه ، لا تفوت هيمنته صغيرة ولا كبيرة ، ولا يخرج عن سلطانه ما دَقَّ وما جَلَّ .

وقد أتت هذه الآيات على هذا الوضع لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه ، ولا يأتى ما يأتى أو يدع ما يدع إلا فى سبيله تعالى .

ومضى القرن الأول على ذلك ، ومضى القرن الثانى أو أكثره على الفطرة ثم كانت « الفلسفة اليونانية » .

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية : لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحى ، وكل

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ .

فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحى فى عالم ما وراء الطبيعة - أى : فى عالم العقيدة - إنما هى فكرة وثنية ، أى أنها فكرة لا حق لها فى الوجود ، لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله: يبيِّنه على لسان رسله ، وكل تدخُّل من الإنسان فى هذا العالم : إنما هو تدخُّل فيما ليس للإنسان التدخُّل فيه ؛ لأنه اقتحام لساحة محرَّمة مقدَّسة، لا ينبغى أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلِّم لما جاء به الوحى الإلهى .

إن الفلسفة اليونانية فى عالم العقيدة : فلسفة وثنية .. إنها وثنية حتى حين تُثبت وجود الله ، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية .. إنها وثنية بالمبدأ الذى قامت عليه ، وهو مبدأ تأليه العقل البشرى ، ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته .

وهى حينما تُثبت وجود الله عقليًّا ليس فى ذلك كبير فائدة ، ولا يبرِّر ذلك وجودها ، ولا قيمة لما تثبته ، وإثباتها والعدم سواء : ذلك أن العقل الذى أثبت هو العقل الذى يمكنه أن ينكر ، وهو العقل الذى ينكر بالفعل .

ولا لزوم ـ إذن ـ للطنطنة والتصفيق الذى نحيِّى به كل عبقرية فكرية فى الشرق أو فى الغرب تحاول - فكريًّا - أن تُثبت وجود الله .

إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عبقريًّا .

ويجب على المؤمن ألاَّ يقيم وزناً ـ أىَّ وزن ـ لأىِّ نتاج فكرى فى عالم ما وراء الطبيعة ، سواء خالف معتقده أو وافقه ، إنه فى معتقده يدين لله وحده وكفى باللَّه مصدراً ، وكفى بالله هادياً ، وكفى بالله مرشداً ، ومَنْ يَعتصمْ بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم ، ومَنْ يَعتصمْ باللَّه فهو حَسْبُهُ .. إن كل ما عدا الهدى الإلهى فى عالم الدين، إنما هو وثنية وضلال .

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية ، وقد أرادت أن تجد لجاماً يعصمها من الخطأ فاخترعت فَنًّا وثنيًّا آخر ، هو فن المنطق ، فما أَجْدَى ولا أَغْنَى ولا تقدَّم بالفكر الوثنى فى عالم الصواب شَرْوَى نَقِير .

وبقيت هذه الفلسفة الوثنية ـ عبر القرون ـ على ما هى عليه ، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات .

ولقد كانت الأمة اليونانية : معذورة بعض العذر ؛ فما كان فى ربوعها دين منزَّل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة ، وما كان مثلها فى ذلك إلا كمثل العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية : فلجأت إلى العقل وألَّهته ، وأخذت تُثبت به وتنكر ، فَضَلَّتْ وأَضَلَّتْ .

وجاءت الديانة النصرانية مصحِّحة للوضع ، فعزلت فكرة الألوهية من تدنيس الوثنية وسَمَتْ بالله جَلَّ جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ، ثم تسللت إليها ـ كميكروب خبيث ـ وثنية اليونان ، فجعلت من وجود الله ـ مجرد وجود الله ـ باباً ضخماً من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكنسى ، ونزلت بذلك الفكرة الدينية المقدَّسة عن الله إلى مستوى الجو الوثنى البشرى !

وجاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة وتزكية تامة للإيمان وأعلن - بمجرد التسمية « الإسلام » - الحرب على التدخُّل البشرى فى دين الله ورسالته ؛ فما «الإسلام» إلا الاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى : إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه ، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله ؟ وهل للمؤمن أن يتصرَّف تصرُّفاً آخر ؟ وهل إذا تصرَّف تصرُّفاً آخر سُمِّىَ مؤمناً ؟ إن الاسترسال مع الله على مايحب هو الإسلام ، وهو الدين ، لا دين غيره ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[1] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[2] .

وإن كل من لا يستسلم لله فى وحيه استسلاماً مطلقاً ؛ فإنه يبتغى ، فى قليل أو فى كثير - حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

ولقد كان الإسلام توجيهاً ، وكان مبادئ ..

ومن توجيه الإسلام : أن وجود الله ينبغى ألَّا يوضع موضع البحث ، وكل من وضعه موضع البحث ؛ فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى .. إنه يبتغى غير الإسلام موجِّهاً ؟

وابتغى المسلمون الأُوَل الإسلام توجيهاً ، كما ابتغوه مبادئَ ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسللت الفلسفة اليونانية ـ كميكروب خبيث - إلى الجو الإسلامى . . تسللت فى عهد المأمون ، وتولَّى كِبْرَ هذا التسلل « المأمون » ، وشجَّعه على ذلك معتزلة عصره ، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور ، وحق لهم ذلك، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة ، راية الدين الإلهى مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية فى محيط العقيدة ، فنميل بهذه الراية - قليلاً أو كثيراً - لنرفع بجوارها راية « أرسطو » ، أو راية « أبيقور » .

ورفع المأمون راية (الانحراف والوثنية) بجوار راية (الهداية المعصومة) ، وعارض المؤمنون واحتجُّوا وبيَّنوا أن الوثنية ـ ولو وافقت الدين ـ فهى وثنية .

ولكن النهج الوثنى أخذ يقوى شيئاً فشيئاً ، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن . ومَعَاذَ اللَّهِ أن تكون عقائد الإسلام الكبرى ـ الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث ـ قد تلوثت بالوثنية ، كلاَّ ، وإنما الذى تلوَّث بالوثنية ـ وإلى حد كبير ـ إنما هو النهج والنزعة والاتجاه فى البحث ومنهج البحث ، وليس ذلك بالأمر الهيِّن ، أو الذى لا يُؤْبَهُ له .. كلاَّ ؛ فذلك له خطورته فى جانب قوة الإيمان وضعفه .

وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحى مأخذ المستسلم ، المسترسل معها على ما تريد وأن تأخذها مُحكِّماً فيها عقلك ، مُؤوِّلاً لها أو عادلاً بها إلى اتجاه خاص ، أو شارحاً لها على نزعة معينة .

وبتعبيرٍ آخر : فرق بين أن تصدر عن الوحى متفهِّماً له بعقلك ، وبين أن تصدر عن عقلك متفهِّماً للوحى . ولعل بعض الناس لا يرى فرقاً فى التعبيرين ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنسانى : فهو إما أن ينطلق من الوحى قائداً العقل إلى الخضوع له ، وإما أن ينطلق من العقل محاولاً تأويل الوحى بما يوافق النتائج التى وصل إليها العقل .

والأول طريق المؤمنين والمسلمين ، والثانى طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين ، والنهج الوثنى ـ نهج إثبات وجود اللَّه عقليًّا ـ هو الذى أتاح الانحراف الكامل، أى : إنكار وجود اللَّه ، فما دام النهج الوثنى قد أعطى حق الوجود ؛ فإن الوثنية ـ كمنهج ـ تأتى بالوثنية كنتائج .

إن وضع مسألة وجود اللَّه موضع البحث : هو الذى هيَّأ لذوى الفِطَر المنحرفة أن يُلحدوا فى دين اللَّه ، وأن يكفروا به سبحانه .. هذه نتيجة .

أما النتيجة الثانية فإنها : ضعف الإيمان ، إذا كنت تضع الوجود الإلهى ـ مجرد الوجود ـ موضع بحث : فمعنى ذلك أنك وضعته موضع شك وريبة ، ولو لم يكن كذلك لما وُضِعَ موضعَ البحث .

وإذا كان الوجود الإلهى ـ مجرد الوجود ـ موضع شك وريبة ؛ فما بقى من أمور الدين شىء لا يوضع موضع شك وريبة !! إن الإيمان فى هذه الأوضاع الوثنية : لا يتأتى له إلا أن يخبو شيئاً فشيئاً حتى يصبح كـ « لا إيمان » .

وهذا هو ما حدث فى الأمة الإسلامية : لقد وصل إيمانها إلى درجة يشبه أن يكون معدوماً . وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثنى فى بحث قضايا الدين ومبادئه .. لقد أصبحت قضايا الدين ، كل قضاياه ، موضع بحث.. وهل يتأتى أن تبقى قضية من قضايا الدين فى مجال اليقين بعد أن وُضِعَ وجود اللَّه ـ مجرد وجوده سبحانه ـ موضع البحث ؟ .. نستغفرك اللهمَّ ، ونتوب إليك .

ونعود فنقول : إن الدين فى نفسه محفوظ بحفظ اللَّه لكتابه العزيز:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

ولكن الذى نشكو منه إنما هو النهج أو المنهج ، أو النزعة ، أو الاتجاه فى البحث .. إن الذى نشكو منه إنما هو : منهج البحث الوثنى . . وإذا شئت قلت: إنما هو منهج البحث اليونانى.

سُئل أحد العارفين عن الدليل على الله ..

فقال : الله .

فقيل له : فما العقل ؟ .. فقال : العقل عاجز لا يدلُّ إلا على عاجز مثله .

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندرىّ الذى جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول :

« إلهى ، كيف يُستدلُّ عليك بما هو فى وجوده مُفتقِرٌ إليك ؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المُظْهِرَ لك ؟! متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟! ومتى بَعُدْتَ حتى تكون الآثار هى التى تُوصِّل إليك ؟!» .

ويقول : «كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، وهو الذى أظهر كل شىء ؟!

كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر بكل شىء ؟!

كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر فى كل شىء ؟!

كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء؟!

كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، وهو أظهر من كل شىء ؟!

كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، وهو الواحد الذى ليس كمثله شىء ؟!

كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، وهو أقرب إليك من كل شىء؟!

كيف يُتصوَّر أن يحجبه شىء ، ولولاه ما كان وجود شىء ؟!».

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

ويقول : « شَتَّانَ بين من يَستدِلُّ به أو يَستدِلُّ عليه ، المُستدِلُّ به عَرَفَ الحقَّ لأصله ؛ فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب حتى يُستدَلَّ عليه ؟! ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هى التى تُوصِّلُ إليه ؟! » .

* * *

٥

الأحزاب الدينية

فى عصر الإسلام الأول كان كل شىء مصطبغاً بالصِّبغة الدينية ، وينبثق عن جو مصطبغ بالصبغة العامة للدولة : صِبْغة الدِّين .

ولا غرابةَ فى هذا ، فإن الإسلام ليس عقيدة قلبية فحسب ، ولكنه نظام يتضمن جميع قوانين المجتمع .. إنه عقيدة وعبادة وأخلاق ، كما أنه تشريع ونظام للمجتمع ، ومبادئ عن الاتجاه العام للدولة ، بحيث تكون فى إطار الوحى . أمة تُسلم نفسها لله سبحانه ، مُحكِّمةً كتابه ، وسُنَّة نبيه .

من أجل ذلك قلنا : « الأحزاب الدينية » ولم نقل : « الأحزاب السياسية » .. وما كان لكلمة « السياسة » وجود بمعناها الحالى فى ذلك العصر .

هذه الأحزاب نشأت نشأة ميسَّرة تشبه أن تكون طبيعية .

لقد نشأ عقب انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى سؤال عادى ينشأ فى كل مجتمع : من الذى يتولَّى الأمر بعد الرسول ﷺ ؟

إن الإسلام لا يعترف بطبقية أساسها النسب فقط ، والشرف فى الإسلام والفضيلة : إنما يتبعان التقوى .

وفى الإسلام مبادئ ـ أشرف ما تكون المبادئ ـ بالنسبة لذلك:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

« إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأموالكم ولكنْ ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم » [رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة] .

﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١) .

«رُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسم على الله لأبرَّه » [رواه أحمد ومسلم والحاكم وغيرهم] .

وإن الجو الإسلامى كله يوحى بأن فضل الشخص لا يرجع إلى مال ، ولا إلى جاه ، ولا إلى منصب ، ولا إلى نَسَب .. وإنما إلى صلته بالله .

ومن أجل ذلك لم تتجه الجمهرة العظمى من المسلمين إلى أسرة بذاتها لتولِّى الحكم .

إن الحكم فى الإسلام « خلافة » ..

والخلافة اتِّباع لرسول الله ﷺ ..

إنها خلافة له ، ومن أجل ذلك : كان الخليفة يتحرَّى ما كان يفعله ﷺ ؛ ويسير على نسقه .

والأمر شورى :

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾(٢).

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(٣).

وقد غرس رسول الله ﷺ مبادئ الشورى بسلوكه فى غزوة بدر حينما استشار المسلمين فى حرب المشركين ، وكانت نتيجة الشورى ترجيح فكرة الحرب.

وأُشِيرَ على رسول الله ﷺ ، فى موضع نزوله فى هذه الغزوة ، وأخذ بالمشورة واستشار المسلمين فى موضوع الأسرى .

(١) سورة المؤمنون : ١٠١ .
(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٣) سورة الشورى : ٣٨ .

واستشار المسلمين فى غزوة الأحزاب وانتهت المشورة بحفر الخندق .

واستشار المسلمين فى أمور أخرى كثيرة .

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى اجتمع الصحابة فى سقيفة بنى ساعدة ، وتشاوروا فى الشخصية المُثْلَى لتولِّى الخلافة ، وانتهى بهم الرأى إلى أبى بكر - رضى الله عنه - .

ولقد كان أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ جديراً بها .

ولقد قام ـ رضوان الله عليه ـ بها خير قيام .

ورأى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أنه خليفة رسول الله ﷺ ، وقد اختارته الأمة لمصلحتها الدينية والدنيوية ، وهذا معناه التفويض فى اختيار من يخلفه ، وتلك وجهة نظر لا غبار عليها .

إن المسلمين اختاروه خليفة - أى : ألقوا إليه قيادهم - واثقين به فى أمور مصالحهم ، فاختار لهم ـ وقد أسلموا إليه الأمر - من يخلفه.

وتحرَّى هو الأمر ، واستشار واستخار ، ولم يألُ جهداً فى النصيحة ، واختار فى نهاية حياته وهو مقبل على ربه : اختار عمر - رضى الله عنه - .

ولكن البعض من الصحابة لم يأخذوا بوجهة النظر هذه ، وأخذ منطقهم وضعاً آخر :

إن الأقرب إلى رسول الله ﷺ أَوْلَى بحمل الرسالة إذا كان يصلح لها ، فإذا لم يكن فى الأقربين من يصلح فيكون الخليفة فيمن يليهم ... وهكذا .

إنها القربى والصلاحية ، ولا يخرج الأمر عن ذلك إلا إذا انعدمت الصلاحية الحقَّة تماماً .

وكان هذا الفريق يتخذ من سيِّدنا على - كرَّم اللَّه وجهه ـ مثلاً كريماً لتولِّى الخلافة .

ولقد كان سيِّدنا علىٌّ مثلاً كريماً للخلافة ، ومن الذى يعارض فى ذلك ؟

لقد كان مثلاً أعلى فى الصلاح والتقوى ، وفى الشهامة والبطولة، وفى العلم .. ولكن الأمور سارت على غير ما يحب هؤلاء .

إنها سارت على غير ما يأملون حينما اختير سيِّدنا عمر ، وسارت على غير ما يحبون حينما اختير سيِّدنا عثمان - رضى الله عنهما - .

وكان هذا الفريق يقوى على مر الزمن ويكثر عدده ، خصوصاً فى أواخر عهد عثمان - رضى الله عنه - ..

وعثمان - رضى الله عنه - هو : « ذو النورين » ، وهو الذى قال عنه رسول الله ﷺ :

« اللهمَّ ارْضَ عن عثمان فإنى عنه راضٍ» [رواه ابن هشام] .

وقال عنه ﷺ عندما وضع فى حِجْر رسول الله ﷺ مبلغاً من المال هو من الكثرة بحيث أفاد المسلمون منه فائدة كبرى فى حربهم، قال عنه :

« ما عَلَى عثمان ما فعلَ بعد اليوم » [رواه أحمد والترمذى] .

ثم هو من العشرة المُبَشَّرين بالجنة .

وانتهت حياة عثمان بهذه المأساة التى لا نحبُّ الخوض فيها مراعاةً لحرمة الصحابة ، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده هو أن سيِّدنا عليًّا بَرَاءٌ من دم عثمان ، وكذلك كبار صحابة رسول الله ﷺ.

وتولَّى سيِّدنُا علىٌّ الخلافة ، تولاَّها عن طريق الشورى ، وكانت خلافته صحيحة .

ولكن حدث ما حدث من المأساة الكبرى ، والحرب التى سقط فيها تسعون ألفاً من فرسان الصدر الأول للإسلام .

وتولَّى معاوية الحكم ، وتغيَّرت صورة الحكم ، فبعد أن كان خلافة أصبح مُلكاً عَضُوداً ..

وبعد أن كان ترسُّماً دقيقاً لخطوات رسول الله ﷺ أصبحت شخصية الحاكم لها دخلها فى الأمر .

ومنذ أن حدثت هذه الأحداث وُجد فى الأمة أحزاب :

- **حزب العلويين ، أو الشيعة .**
- **وحزب الخوارج .**
- **وحزب الأمويين .**
- **وحزب المُرجئة .**

وأصبح النزاع نزاعاً يدور حول أشخاص ، ومن أجل أشخاص، وأصبح فى الأمة أحزاب تدين بالولاء لأشخاص.

والإسلام لا يعترف بأشخاص ، إنما يعترف بمبادئ وأخلاق ، وصفات عُليا ، وشعاره:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

إن الإسلام يعترف بأنبياء ورسل ذوى عصمة .. أما غيرهم من البشر فلا عصمة لهم فى نظر الإسلام.

إن الإسلام يهتم بالمبادئ والمُثل العُليا والقيم الكريمة ، ومكارم الأخلاق ، أما الأشخاص فلا يتأتى أن يكونوا سبباً فى التفرقة بين الأمة .

ويجب على المسلمين جميعاً أن يعلموا حق العلم أن الإسلام ليس من عقائده ما يتصل بالشخصيات ، اللهم إلا الرسول ﷺ.

فإذا أخرجنا الشخصيات من محيطنا الاجتماعى فإن كل الأحزاب التى تقوم على الشخصيات إيماناً بها أو معارضة لها ؛ تسقط من نفسها .

وما من شك فى أن البطولات تفرض التقدير على المجتمع ، هذا أمر جرى عليه العرف ، وتناسقت العواطف مع العرف ، وشعور الإنسان المتزن يسير مع العرف ومع العواطف .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣.

إن الإنسانية تحترم البطولات التى تقدم لها أعمال الخير : سواء أكانت بطولات علمية أم بطولات أخلاقية تهدى إلى الرُّشد ، وتدعو إلى سبيل الله ، ولكل إنسان مطلق الحرية فى أن يقدِّر فلاناً أو أن يفضِّله على فلان ، أما أن يدخل الأشخاص ـ غير الأنبياء والرسل ـ فى العقائد فإن ذلك الأمر بعيد عن الجو الإسلامى الذى من شعاراته قوله تعالى :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١) .

وأول قواعد التقريب أن نسقط من عقائدنا ما يتصل بالأشخاص، ولنا أن نحترم منهم من نشاء ، وأن نصرف النظر عمن نشاء ..

ولكن ذلك وحده غير كافٍ فى السير بالفِرَق إلى الوحدة ، وإذا كان ذلك يلغى الأحزاب الدينية فإنه لا يقضى على الفِرَق الدينية .

* * *

٦

الفرق الدينية

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز عن القرآن الكريم:

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

أما الآيات المحكمات فإنها سهلة ، مُيسَّرٌ فهمها..

وأما الآيات المتشابهات فإنها الآيات التى تتصل بالغيب .

ولقد مدح الله سبحانه فى أوائل كتابه المؤمنين بالغيب فقال:

﴿ الـمَ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ

(١) سورة الحجرات : ١٣.

(٢) سورة آل عمران : ٧.

الصَّلاة ومِمَّا رزقْناهُم يُنفقُون ﴿٣﴾ والَّذين يُؤمنُون بما أُنزل إليْك وما أُنزلَ من قَبْلك وبالآخرة هُم يُوقنُون ﴿٤﴾ أُوْلئك علَى هُدًى مِّن رَّبِّهم وأُوْلئك هُمُ الْمُفْلحُون ﴾[1].

وإذا سألت عن المتشابهات فإنها ـ إذن ـ الذات الإلهية من حيث هى غيب ، وأسرار الذات الإلهية من حيث هى قضاء وقدر، وصفات الله من حيث صلتها بالذات العلية.

ومهما اختلف علماء الكلام وعلماء التفسير فى المتشابه : ما هو؟ فإنه لا يتأتى الاختلاف فى أن ما نَهى رسول الله ﷺ عن البحث فيه : هو من المتشابه .

ولقد نَهى رسول الله ﷺ كثيراً عن البحث فى القضاء والقدر ، وصلة ذلك باختيار الإنسان أو عدم اختياره.

إن البحث فى مسألة الجبر والاختيار والقضاء والقدر ، يثير كثيراً من العقول:

- أهى مقادير تجرى فى أَعِنَّتها ؟ والإنسان فى محيطها كالريشة فى مهبِّ الرياح ؟

- أم أن الإنسان له إرادته وحريته واختياره ؟

إنه البحث الخالد الذى أثار وما زال يثير جدلاً حادًّا بين المتكلمين ، وبين الفلاسفة ، وهو بحث يقسِّم الباحثين - منذ اللحظات الأولى - إلى فريقين :

- الفريق الذى يقول بالجبر .

- والفريق الذى يقول بالاختيار .

ولقد فرَّق هذا البحث بين علماء اليهود ، منذ أن نشأت اليهودية ، وما زال حتى الآن يفرِّق بينهم فى الرأى .

وفرَّق بين الفلاسفة منذ نشأة الفلسفة فى اليونان القديمة .

وفرَّق بين النصارى وما زال يفرِّق بينهم فى الرأى .

وتكلم المسلمون الأوائل منذ العهد المدنى ، وكان الرسول ﷺ ينهاهم نهياً حاسماً عن البحث فى هذا الموضوع ، وكان من أوامره ﷺ :

« إذا ذُكِرَ القَدَرُ فأَمْسِكوا » [رواه الطبرانى وابن حدس].

---

(١) سورة البقرة : ١-٥ .

وكان رسول الله ﷺ ينذر ويهدِّد ويتوعَّد كل من يثير هذا الموضوع ، وله ﷺ أحاديث كثيرة فى ذلك .

ولكن كثيراً من الناس لا يستجيبون لنداء الهداية ، وتغلبهم نزعاتهم- أو نزغاتهم - على أنفسهم ، فيسيرون فى طرق من البحث، نُهوا عن السير فيها ..

ولم يأخذ هؤلاء عظة وعبرة من نتائج هذا البحث عند اليهود ، وعند النصارى ، تلك النتائج التى كانت سبباً فى التفرقة المستمرة على مر القرون ، وعدم الوصول إلى حل للمشكلة .

وسار بعض المسلمين فى الطريق الذى سار فيه مَنْ قبلهم ، وافترقوا كما افترق مَنْ قبلهم ، ونشأ بسبب ذلك فِرَقٌ تنازعت وتشاحنت .

إن مسألة الجبر والاختيار مسألة عصية على الحل ، أبية على الاتفاق .

إنها كذلك شرقاً ، وهى كذلك غرباً ، وهى كذلك قديماً ، وهى كذلك حديثاً ، ولا مفرَّ للعاقل من أن يقول فى ذلك مع الراسخين فى العلم:

﴿ آمنَّا به كُلٌّ مِنْ عند ربِّنَا ﴾[1].

وتأمل معى سؤالين ، سألهما عالمان من كبار العلماء كل لصاحبه :

- أتقول إن الله يحب أن يُعْصَى ؟ «**مذهب الجبر**» .

- أتقول إن الله يُعْصَى رغماً عنه ؟ «**مذهب الاختيار**» .

والله سبحانه وتعالى لا يحب أن يُعْصَى ، وهو سبحانه لا يُعْصَى رغماً عنه .

ماذا ـ إذن ـ ؟

﴿ آمنَّا به كُلٌّ مِنْ عند ربِّنَا ﴾[2] .

يجب ـ إذن ـ أن نُسقط البحث فى الجبر والاختيار ، فذلك من أسرار الله سبحانه، فإذا سقط البحث فى الجبر والاختيار سقط جانب كبير من عوامل التفرقة بين المسلمين.

* * *

(١) ، (٢) سورة آل عمران : ٧ .

٧

البحث فى الذات والصفات

إن كُنْهَ ذاتٍ ما ـ أيًّا كانت هذه الذات ـ لم يصل بعد البحث إلى بيانه .. ورسول الله ﷺ يقول :

«تَفَكَّرُوا فى آلاء الله ولا تُفَكِّرُوا فى ذاتِهِ فَتَهْلِكُوا » [رواه أبو الشيخ ورواه الطبرانى فى الأوسط وابن عدى والبيهقى فى الشعب] .

والله -سبحانه وتعالى - يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١).

ويقول : **﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾** (٢).

ولقد ذكر القرآن الكريم لله - سبحانه وتعالى -صفات تشترك فى الاسم مع صفات الإنسان .

لقد وصفه سبحانه بالعلم والإرادة والقدرة .

وقال سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٣).

وقال تعالى : **﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾** (٤).

- هذه الصفات من علم وإرادة وقدرة.. ما صلتها بالذات ؟

- أهى هى ؟ .. أهى غيرها ؟

---

(١) سورة الصافات : ١٨٠ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) سورة الفتح : ١٠ .

(٤) سورة الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

وبحث فى ذلك المتكلمون والفلاسفة .. واختلفوا ، وكان لا مفرَّ من الاختلاف ؛ لأن ذلك غيب ، والغيب يثير الاختلاف دائماً .. وكان على المسلمين أن يتفكَّروا فى آلاء الله .. وفى التفكير فى آلاء الله استثارة للشكر والتقوى والخشية .

ولكن المتكلمين والفلاسفة تعدَّوا حدودهم ؛ فبحثوا فى صلة الذات بهذه الصفات ؛ فاختلفوا .

وهذه الصفات من يد ، ومن وجه ، ماذا تعنى ؟.. أتعنى يداً ووجهاً أم قدرة وذاتاً ؟ .. أنأخذها على ظاهرها أم نؤوِّلها ؟

وبحث المتكلمون والفلاسفة فى ذلك ، واختلفوا ، وجَرُّوا وراءهم فى الاختلاف الكثيرين ، وتعدَّوا حدودهم ..

ولم يكن ذلك مطلوباً فى العقيدة ، ولن يتأتى أن يقول قائل إن تحديد معنى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1] فى الاستطاعة الإنسانية ، أو هو مطلوب فى العقيدة .

وما من شك فى أن أسلافنا قد وقفوا من ذلك موقف المستبصر المستنير ، إنهم كانوا يقولون فى كل ذلك :

آمنَّا بذلك على مراد ربنا .

أو يقولون : ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[2] .

وكل ذلك من المتشابه ، بل فى مركز الدائرة من المتشابه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[3] .

وإذا رأيت الباحث المجادل الذى يجرى وراء تحديد الغيب فاعلم أنه من الذين فى قلوبهم زيغٌ .

وإذا سقط البحث فى ذلك وقلنا : آمنَّا به على مراد ربنا ؛ سَلِمْنَا، وسَلِمَتْ عقائدنا ، واسترحنا ، وأرحنا الأمة من اتِّباع ما تشابه منه .

---

(١) سورة طه : ٥ .

(٢ ، ٣) سورة آل عمران : ٧ .

وتأمل معى قول رسول الله ﷺ :

« إن المُقسطين عند اللَّه يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يَمين ؛ الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلّوا »[1].

وتأمل :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾[2].

وتأمل :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3] .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[4] .

وهو سبحانه ليس كمثله شىء .

إننا إذا أسقطنا البحث فى المتشابه ؛ انهار صرح الاختلاف الذى يعمل كل أعداء الإسلام على أن يستمر وأن يتسع .

وإذا سرنا دائماً فى هذا التيار ؛ فإن أعين أعداء الإسلام تقرُّ ، ويفرحون لتحقيق أمانيهم فى إثارة النزاع والتفرقة بين المسلمين .

ولكن الله غالبٌ على أمره ، وسنعتصم به سبحانه ..

﴿ ومَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[5] .

سنعتصم به فلا نجعل الأشخاص يفرِّقون بيننا ، وسنعتصم به فلا نبحث فى المتشابه .. وبذلك نرضى الله سبحانه ورسولهﷺ .

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى .
(٢) سورة الحديد : ٤ .
(٣) سورة المجادلة : ٧ .
(٤) سورة الأنعام : ٣ .
(٥) سورة آل عمران : ١٠١ .

٨

وكلتا يديه .. يمين

يقول رسول الله ﷺ : فيما رواه أحمد ومسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ :

« إن المُقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يَمين ؛ الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا » .

وكيف نتصور : وكلتا يديه يمين ؟

إن الأوضاع العادية ترينا دائماً أن إحدى اليدين يمين والأخرى يسار ، ونحن بعقلنا المحدود نتصور دائماً الأمر كذلك ، ولكن الحديث الشريف ينبثق من قاعدة عامة تتمثل فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(١).

وتتمثل فى قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٢).

والواقع أن الذات الإلهية أعز وأمنع من أن يصل إلى وصفها العقل البشرى بمقاييسه وموازينه .

إن الذات الإلهية غيب ، والغيب يؤمن به الإنسان دون تصوُّر له ، اللهم إلا إذا شُبِّهَ بشىء رآه أو سمعه : فأَحَسَّ به على وجه العموم .

والإنسان هكذا خُلق : إنه لا يمكنه أن يتصور إلا ما شاهده أو أحسَّه بإحدى حواسِّه .

والله سبحانه غيب . ولقد قال الإمام ابن عبد البر كلمة فى غاية العمق :

« إن الله ليس كمثله شىء ؛ فكيف يُدْرَكُ بقياسٍ أو بإنعامِ نظرٍ ؟! ».

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

(٢) سورة الصافات : ١٨٠ .

إن الله لا يُدْرَكُ من حيث ذاته بقياس، ولا يُدْرَكُ من حيث الذات بإنعام النظر، إنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[1].

هذه النظرة المؤسَّسة على القرآن والسُّنَّة هى النظرة التى وصل إليها الفلاسفة المؤلِّهون.

ولقد وصل الأمر ببعض الفلاسفة المؤلِّهين إلى أنهم لا يتحدثون عن الله إلا بالسلب، فهم إذا أحبوا أن يقولوا: الواحد. يقولون «اللا اثنين» مثلاً، أو تعبيراً سلبيًّا يؤدى معنى الواحد.

وذلك أن كل وصف إنما هو تحديد، وكل تحديد هو تقييد، وكل تحديد هو حصر، والله سبحانه لا حاصر له.

ومن هنا كانت حتمية الالتزام بما ورد فى النص الإلهى. وهذا الالتزام لا يُفسَّر ولا يُؤوَّل، ولا يُترجم إلى تصوُّر معيَّن، وإنما يقال: آمنَّا به على مراد الله سبحانه، فإذا قال الله سبحانه:

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[2]..

فإن الموقف الحتمى أن نقول:

آمنَّا به على مراد الله، ولا شىء غير ذلك. وكل تفسير، وكل تأويل: هو انحراف عن الصراط المستقيم.

وفى مقابلة الفوقية حينما ترد فى نص، نقول: آمنَّا به على مراد الله. وفى هذه الحالة لا يتأتى أن يتساءل إنسان عن الجهة التى تقتضيها الفوقية، وذلك أنه ما دام الأمر: آمنَّا به على مراد الله؛ فلا يتأتى هذا السؤال.

والاستواء: آمنَّا به على مراد الله.

و... ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[3]: آمنَّا به على مراد الله. ولقد عبَّر الله سبحانه بأعيننا ولم يقل: بعيننا ولا بعينينا.

---

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) سورة الفتح: ١٠.

(٣) سورة الطور: ٤٨.

وهكذا فى كل ما يرد عن الذات الإلهية .

وما من شك فى أن الحديث فى الذات الإلهية إنما هو من المتشابه، ومهما قال المفسِّرون فى تفسير المتشابه ، فإنه مما لا شك فيه أن الحديث فى الذات الإلهية إنما هو من المتشابه ، بل هو مركز المتشابه ، ونحن نعلم الموقف القرآنى من المتشابه، يقول سبحانه عن القرآن الكريم :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

لقد نُهينا فى قوة عن البحث والجدل فى المتشابه .

فإذا لم نبحث ولم نجادل واتبعنا التوجيه القرآنى ؛ فإنه لا يكون بيننا ـ أعنى أمة الإسلام ـ فُرقة مصدرها المتشابه ، الاستواء ، الفوقية ، اليد .. . إلخ .

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾(٢) .

وشىء آخر ، لا ندرى كيف جرؤ الباحثون من أهل السُّنَّة ومن المعتزلة على البحث فيه ؟ وذلك هو موضوع الذات والصفات .

لقد وصل الأمر بالباحثين فى تطاولهم وجرأتهم وكبريائهم أن يبحثوا فى :

- هل الذات الإلهية والصفات الإلهية شىء واحد ، أم أن الذات غير الصفات ؟

- هل هى هى ، أم هى غيرها ، أم لا هى هى ولا هى غيرها ؟

إن الإنسان حينما يكون الأمر متصلاً بالله ليس له إلا الانكسار والخشية ، والخضوع والتضرُّع إلى الله سبحانه فى أن يهبه التواضع، وأن يرزقه الرغبة إليه ،

(١، ٢) سورة آل عمران : ٧ .

والرهبة منه ، وأن يقول مع الشاعر الرقيق «إسماعيل صبرى» :

يارَبُّ أَهِّلْنِى لفضلكَ واكْفِنِى شَطَطَ العقولِ وفتنةَ الأفكارِ

أما أن يصل الأمر إلى هذا الحد من التطاول على المجال الأقدس؛ فإن ذلك لا يكون الموقف منه إلا الموقف الذى التزمه الأئمة: مالك ، والشافعى ، وأحمد ابن حنبل ، وسفيان الثورى ، وأهل الحديث : التحريم .

لقد حَرَّمَ هؤلاء الأفاضل الحديث فى ذلك تحريماً مطلقاً ، وكانوا على حق ـ رضى الله عنهم ـ .

لقد كانوا متناسقين مع القرآن والسُّنَّة ، ومع العقل والمنطق ، ونحن يجب علينا وجوباً مطلقاً أن نسير فى ذلك على هدى من القرآن والسُّنَّة ، وعلى سُنن أئمتنا - رضى الله عنهم - .

وبعد .. إذا فعلنا ذلك أَمِنَّا من الزلل ، وأدَّينا لله حقه من القداسة ، وأزلنا الكثير من الخلاف فيما بيننا .. وهذا هو هدفنا من الكتاب ..

ونرجو الله أن يهدى له ، وأن يهدى به .. إنه سميع قريب مجيب .

* * *

٩

المذاهب الفقهية

لقد طبَّق رسول الله ﷺ الإسلام كما أحبه الله سبحانه وتعالى ، طبَّقه فى مختلف مواقفه : طبَّقه بكلامه ، وطبَّقه بمشاعره .

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يسيرون حسبما يرسم ، ويتخذونه قدوة ، ويعملون كما يعمل ، وبذلك تواترت سُنَّته ﷺ العملية ، وكانوا - رضى الله عنهم- يشرحون هذه السُّنَّة ، وكانوا يروون ما تحدَّث به رسول الله ﷺ فى مواقفه المتنوعة.

ولقد حفظ بعض الصحابة ما لم يحفظه الآخرون ، ثم تفرقوا فى البلاد فى الأمة الإسلامية ، وحفظت الأمة الإسلامية فى مختلف البلاد عن هؤلاء الصحابة الكثير ، وأخذ الناس يروون ما حفظوا . ونشأ قوم اتجهوا إلى جمع هذه الأحاديث فى صِحَاح وفى مسانيد ، وتحرَّوا فيها الصدق ، نافين عنها كل ما يمكن أن يناله الشك ، وقاموا فى سبيل ذلك بما لم يصل إلى مثله المؤرخون الحديثون من أساليب النقد ، وتحرِّى الصحة .

وكان رسول الله ﷺ له أوضاع تسير على نسق واحد فى بعض المسائل وتختلف فى بعضها الآخر .

إنه ﷺ كان يلتزم سلوكاً واحداً فيما هو فرض ، كالقراءة والركوع والسجود والجلوس للتشهُّد فى الصلاة ، وكصيام شهر رمضان ، والإمساك الكامل فيه عن الطعام والشراب ... وهكذا .

أما فيما يتعلق بالسُّنَن فإن رسول الله ﷺ ما كان يلتزم بصورة حتمية سلوكاً واحداً ، وإنما كان يأتى فى بعض الأحيان ما لم يأتِهِ فى أحيان أخرى .

ومن أمثلة ذلك ما كان يقوله ﷺ بعد تكبيرة الإحرام قبل قراءة الفاتحة ، وما كان يقوله ﷺ من دعاء فى سجوده .

وهل كان ﷺ فى وقوفه بين يَدَىِ الله للصلاة يُرخى ذراعيه أم يقبضهما واضعاً اليمنى على اليسرى ؟... وهكذا .

ومثل هذه الأمور تحدث فى أعمال العبادة ، كما تحدث فى البيع والرِّبا والإجارة وغيرها من أعمال التعامل بين الناس .

ومذاهب الفقهاء تدور فى هذا الفلك: إنه لا اختلاف بينهم فى الركوع والسجود مثلاً ، ولكن الاختلاف بينهم فى غير الفروض الواجبة الأداء .

ولكن هذه الأمور الهيِّنة التى ليست بفروض ولا واجبات قد استغلتها جهات يسرُّها التفرقة بين المسلمين ، وجهات أخرى مهمتها التفرقة بين المسلمين ؛ حتى تصرفهم الفُرقة عن الأخذ فى مهام الحياة الكبرى ، وحتى تُضعفهم هذه الفُرقة ؛ فتصرفهم عن الإصلاح الحقيقى للمجتمع .

ولقد اخترع لهم أعداء الإسلام مسائل للاختلاف :

فمسألة « السَّدْل والقبض » .. « والسَّدْل » : هو إرخاء اليدين فى الصلاة ، و«القبض» : هو وضع اليد اليمنى على اليسرى حينما يكون الإنسان واقفاً بين يدى الله .

لقد اختلف فيها بعض العلماء فى بعض الأقطار إلى درجة حادة، ويعجبنى موقف عالم مستنير وقف فى جلسة احتدَّ فيها النقاش حِدَّةً سيئةً ؛ فقال :

يا علماء الإسلام ، أسألكم بالله : إذا وقف الإنسان فى الصلاة ومدَّ يديه تماماً أمامه ، هل تفسد صلاته ؟

قالوا : لا .

فقال : فإذا رفع يديه تماماً إلى أعلى ، هل تفسد صلاته ؟

فقالوا : لا .

وأخذ يسألهم : فإذا أَرْخَاهما ؟.. وإذا ضَمَّهما إلى بعضهما ؟

وهكذا أخذ يسألهم عن الأوضاع المختلفة لليدين ويقولون : إنها لا تفسد الصلاة .

فقال لهم فى النهاية : عَلاَمَ اختلافكم يا علماء الإسلام؟! عَلاَمَ شقاقكم ونزاعكم واختلافكم ؟! إنها فتنة ، فجنِّبوا الإسلام عنها ، وجنِّبوا المجتمع شرَّها.

وهدأ الجميع ، وعرفوا أن حِدَّتهم فى الخلاف إنما تقوم على غير أساس صحيح .

وعلى كل حال ، فإن منشأ الاختلاف بين الفقهاء : هو استناد بعضهم إلى ما روته الأحاديث من حالات رسول الله ﷺ من أمر السُّنَن ، واستناد البعض الآخر إلى ما روته الأحاديث من حالات أخرى ..

وكُلُّهم من رسولِ اللَّهِ ملتمسٌ غَرْفاً من البحرِ أو رَشْفاً من الدِّيَمِ

وكل مذاهب الفقه إنما هى آراء فى مدرسة واحدة هى المدرسة الإسلامية ، أو هى مدرسة رسول الله ﷺ.

بيد أن ضيق الأفق عند بعض المتأخرين هو الذى جعلهم يقيمون من هذه الآراء « مذاهب » منفصلة ، ومنفصلة الأتباع ، ينتصر كل منهم لمذهبه .

ويوشك هذا الانفصال أن يزول الآن فى واقع المسلمين ، وليس له - على كل حال - الحدَّة التى كانت له فى الماضى .

وإذا كانت المذاهب آراء مجتهدين فى مدرسة رسول الله ﷺ ، وهذا يشبه أن يكون بديهيًّا ، فإن الذى ما زال غامضاً نوعاً ما فى أذهان بعض الناس إنما هو أمر «الاجتهاد » .

ولقد حاول البعض أن يُشيع بين الناس أن باب الاجتهاد قد أُغلق ، وأن المجتهدين هم هؤلاء الذين نبغوا فى الماضى من أمثال الإمام مالك والإمام الشافعى ، وغيرهما - رضى الله عنهم - .

وأخذ آخرون يجادلونهم فى ذلك ، يرون أن باب الاجتهاد مازال مفتوحاً ولكنهم يتحدثون عن الاجتهاد وكأنه مُيسَّر لكل من يريد .

والواقع أنه لا يتأتى لشخص مستنير ذى بصيرة مضيئة أن يقول إن فضل الله قد اقتصر على عدد محدود من الناس ، هم المجتهدون السابقون ، وذلك أنه من البديهى أن كل من تتوافر فيه شروط الاجتهاد يمكن أن يكون مجتهداً .

أما شروط الاجتهاد فهى :

١ ـ معرفة متمكِّنة للغة العربية ، ولقد كان الإمام مالك- رضى الله عنه - وكان الإمام الشافعى- رضى الله عنه - وكان غيرهما من المجتهدين من فحول اللغة العربية الأفذاذ .

٢ ـ حفظ القرآن الكريم حفظاً متقناً ، وفهمه فهماً لا يقل عن فهم كبار المفسِّرين ، ويتضمن ذلك معرفة أسباب النزول فى الآيات التى كان لها أسباب نزول ، وذلك أنه وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإن معرفة أسباب النزول تساعد على فهم الجو الذى نزلت فيه الآية ، كما تساعد على التعمُّق فى فهمها .

٣ ـ معرفة الأحاديث معرفة لا تقل عن معرفة المُحدِّثين ، وخصوصاً الأحاديث التى تتصل بالأحكام ، وذلك أن الأحاديث الخاصة بالأحكام تفسر الكثير مما لا تفصِّله بعض الآيات القرآنية .

٤ ـ معرفة السُّنَّة العملية لرسول الله ﷺ ، والسُّنَّة العملية متواترة لأن الذين لازموا رسول الله ﷺ فى مكة ، ثم الذين لازموه فى المدينة ، كانوا كثرة كثيرة .. ولقد شاهدوا ما فعله رسول الله ﷺ وتابعوه عمليًّا فيما قام به ، ونقلوا ذلك لمن شاهدهم من بعد .. وهكذا .

٥ ـ معرفة سيرة رسول الله ﷺ فى صورة واضحة .

وهذه الأمور - التى ذكرناها - يقرُّنا عليها كل من عنده صورة للاجتهاد :

ما هو ؟ وكيف يكون ؟

وهى - وإن كانت متعددة - فإن بعضها يدخل فى بعض ، وبعضها يُفسَّر ببعض، وبعضها أسباب وبعضها نتائج ، وكل منها يساعد على فهم الآخر : فهى ـ إذن ـ ميسورة ، ولكن لا بد من إتقانها .

والأمر المهم الذى نحب بتوفيق الله تعالى أن نأخذ فى الحديث فيه الآن هو : هدف الاجتهاد ..

يظن بعض الناس أن هدف الاجتهاد إنما هو تيسير الأمور ، أو اختراع رأى ، أو ابتداع فكرة ، أو إبداء رأى شخصى .

لو كان الأمر كذلك لما كان هناك من حاجة إلى شروط ، أو كَدٍّ فى التحصيل ، أو جهدٍ فى المعرفة ـ كلاَّ ، إن الاجتهاد ليس كذلك .

إن رسول الله ﷺ يقول فيما رواه الشيخان :

«مَنْ أَحْدَثَ فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ».

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

«مَنْ دعا إلى هُدًى : كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه ، لا ينقص ذلك من

أجورهم شيئاً ، ومَنْ دعا إلى ضلالة : كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » [رواه مسلم] .

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال : قال رسول الله ﷺ :

«يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدُولُهُ ، ينفون عنه تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المُبطلين ، وتأويلَ الجاهلين » [رواه البيهقى] .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » [رواه فى **«شرح السُّنَّة »** **وقال النووى فى «أربعينه» : هذا حديث صحيح رويناه فى «كتاب الحجة » بإسناد صحيح**] .

-إن هدف الاجتهاد أمران :

الأمر الأول : هو الاجتهاد فى المسائل التى كانت فى عهد الرسول ﷺ ، للوصول إلى ما كان عليه النبى ﷺ فى هذه المسألة أو تلك . إنه بذل الجهد للوصول إلى حكم يقينى فى مسألة أو مسائل كانت على عهد الرسول ﷺ ، وهذا لا يتصل من قرب أو من بعد بالابتداع أو الاختراع أو الرأى الشخصى.

وأما الأمر الثانى : فهو الاجتهاد فى مسألة حدثت بعد عهد النبى ﷺ من أجل ربطها بقاعدة عامة من قواعد الدين الإسلامى محلِّلة أو محرِّمة .

إن القرآن الكريم ، وإن السُّنَّة النبوية الشريفة ، فيهما قواعد عامة يدخل فيها ما لا يُحصَى من الجزئيات ، ومهمة المجتهد هى أن يربط المسألة الحديثة بالقواعد العامة .

وهو - فى هذا - لا حرية له .. إنه مقيد بالقياس وبالقواعد العامة ، ليس له -فى هذا -حرية الانطلاق كيفما يريد ، كلاَّ .. إنه فى كل ظروفه مُتَّبِع لا مُبتدِع ، ورسول الله ﷺ يقول فى نوعى الاجتهاد :

«اتَّبِعوا ، ولا تَبتدِعوا ؛ فقد كُفِيتم » .

والذى نريد أن ننتهى إليه هو :

١ـ المذاهب الفقهية آراء فى مدرسة الرسول ﷺ ، وهى بهذا الاعتبار لا تفرِّق ولا تفصل بين فرد وفرد ، ولا بين جماعة وجماعة.

٢ـ باب الاجتهاد مفتوح إذا توافرت الشروط ، والمسألة ليست مسألة جدل فى هذا ، وإنما هى مسألة اجتهاد فى أن تتوافر الشروط.

٣ـ الاجتهاد لا ابتداع فيه ، وهو ليس رأياً شخصيًّا .

وبعد كل ذلك نقول :

إننا قبل هذا الحديث وبعده نشترط فى المجتهد أن يكون متحلِّياً بفضيلة «التقوى» ..

إن قِمَمَ الفقهاء جميعاً من الأولياء ، والاجتهاد الصادق عند المجتهدين القِمَم هو فتحٌ من الله ، ونورٌ من لدنه سبحانه .

ونحن نزور الإمام الشافعى مؤمنين بأنه من أولياء الله ، وأهل العراق يزورون الإمام أبا حنيفة مؤمنين بأنه من الأولياء .. وهكذا.

ولن يأتى فتحُ اللَّه إلا لمن تحلَّى بالتقوى ، واللَّه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

* * *

(١) سورة آل عمران : ١٠١.